الزرافة أوصافها وصفاتها في الشعر الأندلسي

نصيب عاشور نصيب محمد (*)

مقدمة:

تعد الزرافة من أجمل الحيوانات الأهلية؛ التي وجدت في الطبيعة، وعلي الرغم من ندرة الزرافة في بلاد الأندلس؛ إلا أن الشاعر الأندلسي، وصفها في عدة مناسبات، وأبرز جمالها، وإظهار حكمة الخالق في تكوينها، وإبداعها في أحسن صورة.

الزرافة : بفتح الزاي، وضمها الحيوان المعروف، وهي متولدة بين ثلاث حيوانات بين الناقة الوحشية، والبقرة الوحشية، والضبعان، وهو الذكر من الضباع ، فيقع الضبعان على الناقة، فتأتي بولد بين الناقة، والضبع، فإن كان الولد ذكرًا، وقع على البقرة، فتأتي بالزرافة، وذلك في بلاد الحبشة، ولذلك قيل لها الزرافة، وهي في الأصل الجماعة، فلما تولدت من جماعة، قيل لها ذلك، والعجم تسميها " اشتركا ويلنك" لأن اشتر الجمل، وكاو البقرة ، ويلنك الضبع.

وللزرافة العديد من الصفات؛ التي اتسمت بالجمال، والأناقة "وهي حسنة الخلق، طويلة اليدين، قصيرة الرجلين، مجموع يديها، ورجليها نحو عشرة أذرع ، ورأسها كرأس الإبل، وقرنها كقرن البقرة، وجلدها كجلد النمر، وقوائمها وأظلافها كالبقر، وذنبها كذنب الظبي، ليس لها ركب في رجليها، وإنما ركبتاها في يديها، وهي إذا مشت، قدمت الرجل اليسرى، واليد اليمنى، بخلاف ذوات الأربع كلها؛ فإنها تقدم اليد اليمنى، والرجل اليسرى، ومن طبعها التودد، والتآنس، وتجتر، وتبعر، ولما علم الله - تعالى - أن قوتها من الشجر جعل يديها أطول من رجليها؛ لتستعين بذلك على الرعي منها بسهولة." (١)

وتحتل رأس الزرافة، ويديها المرتبة الأولي بين الحيوانات من حيث ارتفاعهما بصورة كبيرة ؛ تختلف فيها عن كثير من الحيوانات؛ حتي أن أحد

(*) هذا البحث مستل من من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: [وصف الحيوان في الشعر الأندلسي " دراسة موضوعية فنية "]، تحت إشراف أ.د. أحمد يوسف خليفة – كلية الآداب - جامعة سوهاج & أ.د. سليمان محمد سليمان – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. نجوان كمال السيد – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

١ – الدميري ، حياة الحيوان الكبري جـ٢ صـ ٨

شعراء الأندلس في القرن الرابع الهجري، رسم صورة فنية بديعة لذلك؛ حينما شبه رأس الزرافة، وما يخرج من فمها بالبرق؛ حينما يضيء في السماء، وقد ورد هذا التشبيه؛ لدي الشاعر الأندلسي ابن فرج الجياني (؟ ه - ٣٦٥ هـ) ضمن بيت شعري واحد أنشد فيه قائلاً : بحر السريع

فالجو في عاتق نفّاطةٍ زَرَّافَةٍ نيرانُها البَرَقُ(١)

ويبدو أن الشاعر ابن حمديس الأندلسي استعار الصورة نفسها من الشاعر الأندلسي ابن فرج الجياني في تشبيه الزرافة بهذا التشبيه الجميل؛ إن لم يكن هناك اتفاق في رسمهم الصورة نفسها، والتعبير عن ما يخرج من فم الزرافة بالنفط المحرق.

ويرسم الشاعر الأندلسي ابن حمديس (٤٤٧-٥٢٧هـ) لوحة فنية، دقيقة التفاصيل؛ حينما اعتمد الشاعر فيها أسلوب التفصيل، والاستقصاء مع عنصر القصص في عرضه لصفات الزرافة، وتناوله لأوصافها علي الترتيب في دقة شديدة، ونظم بديع معبرًا عن هذه الزرافة، أصدق تعبير من خلال، تناوله لأجزاء هذا الحيوان؛ التي تناولتها هذه اللوحة الفنية بكل أجزائها الوصفية الدقيقة من خلال رصد الشاعر لأعضاء الزرافة، وحركتها، ومشيتها، ونظرتها .

ورصد كل ما يتعلق بها، وببيئتها؛ التي تعيش فيها من خلال وصفها، ورصد عناية القائمين علي خدمتها، ورعايتها .

فإن دل هذا، فإنه يدل علي دقة الشاعر، وشدة ملاحظته، ومعايشته معيشة حقيقة؛ لهذا الحيوان ومتابعته لحياته، ومراقبته لكل تفاصيلها، وقد أنشد ابن حمديس في هذا الحيوان قائلاً : بحر الطويل

ونوبيّةٍ في الخَلْقِ منها خلائِقٌ متى ما تَرقّ العينُ فيها تَسَهّلِ
إذا ما اسمُها ألقاهُ في السمع ذاكرٌ رأى الطرفُ منه ما عناهُ بمقولِ

١ – صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ) الوافي بالوفيات ، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت ، عام النشر(١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م) جـ ٢١ صـ ٣٠

لها فخذا قَرْمٍ(١) وأظلافُ قَرْهبٍ(٢) وناظِرَنا رِئمٍ وهامةُ أَيّلِ
مُبَطَّنَةُ الأخلاقِ كبراً وعزّةً فمهما تَجُدْ بالمشيِ في المشيِ تَبخلِ
وكم حَوْلها من سائسٍ حافظٍ لها يُكرّمها عن خُطّةِ المتبذّلِ(٣)
ترى ظِلْفَ رِجْلٍ يَلتقي إن تنقّلَتْ بظلفِ يدٍ منها عزيزِ التنقّلِ
كأنّ الخطوطَ البيضَ والصّفْرَ أشبهتْ على جسمها ترصيعَ عاجٍ بِصَندلِ(٤)
ودائمةُ الإقْعاءِ في أصْلِ خَلْقها إذا قابلتْ أدبارها عين مُقْبلِ
تَلفّتُ أحياناً بعينٍ كحيلةٍ وجيدٍ على طول اللواءِ مظلّلِ
وعرفٍ دقيقِ الشّعْرِ تحسبُ نبتَهُ إذا الرّيحُ هَزّتْهُ ذوائب سُنْبُلِ
تَنَفّسُ كبراً من يراعٍ مُثَقَّبٍ فتعطي جَنوباً منه عن أخْدِ شمألِ
وتنفضُ رأساً في الزّمام كأنّما تريكَ له في الجوّ نفضةَ أجْدَلِ
إذا طلع النطحُ اسجادتْ نطاحَهُ برأسٍ له هادٍ على السُّحبِ مُعْتَلِ
إذا قُمِّعا بالتبرِ زَادَتْ تَعَزُّزاً على كلّ خودٍ (٥)ذاتِ تاجٍ مُكلَّلِ
وَتَحسَبها من نَفسِها إن تَبختَرَتْ تُزَفّ إلى بعلٍ عروساً وتَنجلي
وكم منشدٍ قولَ امرئِ القيسِ حَوْلها أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ(٦)

استهل الشاعر أوصافه عن الزرافة، بذكر نسبها، وأماكن تواجدها، ونشأتها؛ فالعين تسعد برؤيتها، ومشاهدة فخذيها الكبيرين، ومشاهدة أظلافها؛ التي تشبه أظلاف الثور المسن، والتمتع بالنظر إلي عيونها؛ التي تشبه عيون الظباء، ومشاهدة هامتها الكبيرة ؛ التي تشبه هامة الثور الضخم .

١ – قرم: القَرْمُ: الفحل المصعب. معجم العين باب القاف والراء والميم صـ ١٥٨
٢ – قرهب: القَرْهَبُ من الثّيران: المسنّ الضخم المصدر نفسه صـ١١١
٣ – الرَّجُلُ المُتَبَذِّلُ: الذي يَلي الأعمالَ بنَفْسِه المحيط في اللغة
٤ – صنْدَلَ البعيرُ: إذا ضَخُم رأسُه، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) معجم: تهذيب اللغة صـ جـ ١٢ صـ ١٨٩
٥ – [خود] الخود: الْمَرْأَة الناعمة الْجَسَد وَلَيْسَ لَهُ فعل يتَصَرَّف.
٦ – ابن حمديس ، ديوان شعر ابن حمديس صـ ٣٣٤، ٣٣٥

وقد استعار الشاعر في تفصيل أوصافه للزرافة بمجموعة من الحيوانات استعار منها أجمل الصفات، والأوصاف؛ لإبراز جمال زرافته، وإظهار محاسنها الخلابة؛ التي تنعكس من جمال ألوانها؛ حينما تتناسق في نسق، عجيب المنظر شديد الجمال .

ويظهر ابن حمديس- في أبياته آنفة الذكر- مدى اهتمام القائمين علي تربية الزرافة، وعنايتهم بها؛ وربما يدل ذلك علي وجود ما يسمي اليوم بحديقة الحيوان في بلاد الأندلس .

وقد شار د. حازم عبد الله في كتابه " وصف الحيوان في الشعر الأندلسي" لهذا قائلاً: " وربما دلت الصورة – أيضًا- علي وجود ما يسمي الآن – حديقة الحيوان – في الأندلس، أو ما يقرب منها ، وذلك بما تفهمه من وصف الشاعر للقائمين علي العناية بالزرافة، وبذلهم الجهود لخدمتها، وتوفير أسباب العيش والراحة لها، وهذا الأمر لا يستبعد علي أغلب الأندلس؛ الذين بلغوا درجة متقدمة من الحضارة ، والترف، وعرفوا بالتأنق، وحب الجمال، والسهولة، والنظام في المأكل، والمشرب، والملبس، وفي وسائل العيش العديدة ." (١)

واستمر ابن حمديس في إبراز محاسن زرافته من خلال؛ حديثه عن عرفها؛ الذي يشبه ذوائب السنبل، وإظهار جمالها، وكأنها امرأة تزينت بالذهب، ولبست تاجًا مرصعًا، بالذهب الأصفر، وأما عن جيدها الطويل، فقد ربط الشاعر بينه، وبين رؤوس السحاب، وبين تحليق الصقور في الفضاء .

والحقيقة أن الشاعر ابن حمديس، بذوقه الرفيع ، وحسه المرهف، لم يكتف، بوصف جمال الزرافة الحية الكائن، الذي عايشه، ورآه أمام عينيه؛ بل تخطي ذلك، بوصفه الزرافة الجماد المصنوعة من المعادن.

١ – حازم عبد الله ، وصف الحيوان في الشعر الأندلسي صـ ١٨٧

وكعادة ابن حمديس في رسمه لوحة فنية بديعة، وفائقة الجمال، ودقيقة التفاصيل معبرة ، أصدق تعبير عن موصوفه، سواء كان كائنًا حيًا، أو كائن من الجماد، ففي وصف الزرافة؛ التي كانت في بركة الماء في أحد قصور ملوك الأندلس، أنشد ابن حمديس قائلاً : بحر الكامل

وزرافةٍ في الجوفِ من أنبوبها ... ماءٌ يريكَ الجري في الطيرانِ
مركوزة كالرمح حيثُ ترى له ... من طعنه الحلق انعطاف سنانِ
وكأنّها ترْمي السماء ببندق ... مستنبطٍ من لؤلؤ وجمانِ
لو عاد ذاك الماءُ نفطاً أحرقت ... في الجوّ منه قميصَ كلّ عنانِ
في بركةٍ قامتْ على حافاتها ... أُسْدٌ تذلُّ لعزّة السلطانِ
نزَعتْ إلى ظلم النفوس نفوسها ... فلذلك انتزعتْ من الأبدانِ
وكأنّ بَرْدَ الماءِ منها مُطفئٌ ... ناراً مُضَرَّمَةً من العدوانِ
وكأنّما الحيّات من أفواهها ... يَطرَحنَ أَنفُسَهن في الغدرانِ(١)

لقد استحوذ جمال الهيئة، وتناسق المنظر- الذي بدت عليه زرافة البركة – علي لب ابن حمديس، وقلبه، وحواسه جميعًا؛ فأبدع في التعبير عنها، وتصويرها؛ حينما جعل الماء، يندفع من أنبوبة الماء؛ التي وسط جوفها؛ وكأنه طائر يطير بسرعة، تفوق الطائرة في الجو .

وتتوسط الزرافة بركة الماء، كما تتوسط طعنة الرمح الحلق؛ وقد ربط الشاعر-هنا- بين اندفع الماء من جوف الزرافة، وبين طعنة الحلق، فالحلق أحد الأعضاء؛ التي يمر الماء منه إلي الداخل، أو الخارج .

ويعد الشموخ من الصفات الجملية؛ التي وصفت بها الزرافة؛ وكأن زرافة ابن حمديس في علوها، وشموخها؛ ترمي السماء بطلقات من اللؤلؤ، والجمان .

واستمر ابن حمديس في إبراز جمال البركة، وجمال الزرافة؛ حتي ينتقل إلي وصف مجموعة من الحيوانات؛ التي كانت تحيط بالبركة مثل: الأسد، وبعض الحيات ... وغيرها .

١ – ابن حمديس الصقلي ، ديوان شعر ابن حمديس الصقلي صـ ٤٤١، ٤٤٢

ويعد ابن رشيق القيرواني من الشعراء؛ الذين وصف الزرافة في الشعر الأندلسي، واعتمد ابن رشيق– أيضًا (٥٤٥ ه -٦٠٨هـ) في ذكر هذا الحيوان علي وصف منظره، وهيئته، وجماله، ورصد حركاته ، ونظراته، فأنشد الشاعر ابن رشيق في ذكر الزرافة قائلاً:" بحر الكامل "

وَأَتَتْكَ مِنْ كَسْبِ المُلوكِ زَرافَةٌ ... شَتَّى الصِّفاتِ لِكَوْنِها أَنْباءُ
جَمَعَتْ مَحاسِنَ ما حَكَتْ فَتَنافَسَتْ ... فِي خَلْقِها وتَنَافَتِ الأَعْضاءُ
تَحْتَثها بَيْنَ الْحَوَاني مِشْيَةٌ ... بادٍ عَلَيْها الْكِبْرُ وَالْغُلَوَاءُ
وَتَمُدُّ جِيداً في الْهَواءِ يَزِينُها ... فَكَأَنَّهُ تَحْتَ اللِّوَاءِ لِوَاءُ
حُطَّتْ مَآخِرُها وَأَشْرَفَ صَدْرُها ... حَتَّى كَأَنَّ وُقُوفَها إِقْعاءُ
وَكَأَنَّ فِهْرَ الطَّيبِ ما رَجَمَتْ بِهِ ... وَجْهَ الثَّرَى لَوْ لُمَّتِ الأَجْزاءُ
وَتَخَيَّرَتْ دُونَ المَلابِسِ حُلَّةً ... عُنِيَتْ بِصَنْعَةِ مِثْلِها صَنْعاءُ
لَوْناً كَلَونِ الدَّبْلِ إلاَّ أَنَّهُ ... حَلْيٌ وَجَزَّعَ بَعْضَهُ الَحْلاَّءُ
أَوْ كَالسَّحابِ الْمُكْفَهِرَّةِ خُيَّطَتْ ... فِيها الْبُرُوقُ وَشَقُّها إيَماءُ
أَوْ مِثْلَ ما صَدِئَتْ صَفائِحُ جَوْشَ ... وَجَرَى على حافاتِهِنَّ جِلاءُ
نِعْمَ التَّجافِيفُ الَّتي ادَّرَعَتْ بِهِ ... مِنْ جِلْدِهَا لَوْ كانَ فِيهِ وِقاءُ
وَسَوابِقٌ مِثْلُ البُرُوقِ لَواحِقٌ ... بَلْ عِنْدَها أَنَّ الْبُرُوقَ بِطاءُ
جُرْدٌ يَقَعْنَ عَلى الصَّفا فَيُثِرْنَهُ ... وَكأَنَّهُنَّ عَلى الثَّرَى أَنْداءُ
مَكْسُوَّةُ الصَّهَواتِ كُلَّ مُكَلَّلٍ ... لا يَنْتَهِيهِ بِقيمَةٍ إِحْصاء
يَلْمَعْنَ مِنْ أَكْتافِهِنَّ كَأَنْجُمٍ ... زُهْرٍ تَوَلَّتْ صَقْلَها الأَنْواء
والمُذْهَباتُ مِنَ الَخْوافِقِ بَعْضُها ... لَيْثٌ أَزَلُّ وَلَقْوَةٌ فَتْخَاء
عَذَبٌ كأَلْسِنَةِ الْبُرُوقِ تَلَمَّظَتْ ... لَيْلاً بِهِنَّ الدِّيمَةُ الْوَطْفاء
كادَتْ يُنالُ بِها السَّماء تَطاوُلاً ... قَصَبُ النُّضارِ وَلَنْ يُنالَ سَماء(١)

١ – ابن رشيق القيرواني ، ديوان شعر ابن رشيق القيرواني صـ١٨

أفاض ابن رشيق في وصفه لصفات الزرافة، وأوصافها، ووصف أعضائها - أيضًا - ورصده رصدًا دقيقًا معبرًا عن حركتها، ونظراتها، وأفاض في حديثه - أيضًا - عن سوابقها، وجيدها كما فصل القول في ألوانها .

ومن أوصاف الشاعر ابن رشيق في الزرافة وصفه لها، بأنها غير مذللة، ومهيأة للركوب مثل الناقة... وغيرها من الحيوانات، فهي تشبه لحد كبير ظهر الناقة، ولكنها بلا سنام للركوب، أو غارب يقودها منه الراكب.

ثم عرج ابن رشيق؛ لوصف جمالها، وألوانها، وكأنها ارتدت وشاح من الحناء، فائق الجمال، وفي هذه الأوصاف والمعاني، أنشد الشاعر الأندلسي ابن رشيق القيرواني قائلاً : المتقارب

وَمَجْنُونَـــةٍ أَبَـــداً لَـــمْ تَكُـــنْ ... مُذَلَّلَـــــةَ الظَّهْـــــرِ للرَّاكِـــــبِ
قَـدِ اتَّصَـلَ الْجِيـدُ مِـنْ ظَهْرِهـا ... بِمِثْـــلِ السَّـــنامِ بِـــلا غـــارِبِ
مُلَمَّعَـــــــةٍ مِثْلَمـــــــا ... بِحَنـــاءِ وَشْـــيٍ يَـــدُ الكاعِـــبِ
كَـــأَنَّ الْجَـــوَارِيَ كَنَّفْنَهـــا ... تَخَلَّـــخُ مِـــنْ كُـــلِّ مـــا جانِـــبِ(١)

ويلاحظ من نظم ابن رشيق... وغيره من الشعراء؛ الذين تناولوا هذا الحيوان العجيب بالوصف؛ أنهم حلقوا في فلك قريب - إن لم يكن متشابها في سردهم لهذا الحيوان ووصفه .

فمعظم أوصاف هؤلاء الشعراء تدور حول صفات الزرافة، وأوصافها، ثم رصد حركاتها، ونظراتها، والحديث عن تناسق ألوانها ... وغير ذلك من الصفات، والأوصاف المتعلقة بهيئة الزرافة عامة، ومنظرها الكلي .

١ – المصدر السابق صـ٣٠

وقد استهوي جمال الزرافة، ورشاقتها لب الشاعر الأندلسي ابن خلدون، فانبري ينظم بدقة شديدة صفاتها الجميلة، وأوصافها البديعة؛ التي لم تجتمع في حيوان سواها، وهذا من بدائع الخالق، وحكمته في خلقه، وتكوينه للحيوانات، وخاصة الزرافة .

وقد استهل ابن خلدون نظمه للزرافة، بإبراز أوصافها الخارجية ، ويبدو أن تلك الأوصاف ؛ أصبحت عاملاً من عوامل استمالت الشعراء نحوها، فعن قوائمها؛ يقول ابن خلدون، أنها بارزة النواحي متحلية بوشاح، تعددت ألوانه الجميلة؛ التي تناسقت في شكل محكم بديع .

ويشير ابن خلدون لأصل الزرافة، ونسبها مشيرًا في ذلك لأكثر من نسب، فهو يقصد، أنها متولدة بين مجموعة من الحيوانات، منها الوحشي، ومنها الأليف.

وبالرغم من هذا النسب العجيب للزرافة، وغير المؤكد بدليل قوي، فأنها كما يزعم ابن خلدون (٧٣٢ ه -٨٠٨هـ) في أبياته - تالية الذكر- لم تنسب، أو تأنس في الصحراء بالقرد، فشتان بين جمال الزرافة الأخاذ، وبين هيئة القرد؛ فالفرق جلي واضح، وفي هذه الأوصاف، أنشد ابن خلدون قائلاً :" أحذ الكامل ":

ورقيمـــة الأعطـــاف حاليـــة ... موشـــية بوشـــائع(١) البـــرد
وحشـــية الأنســـاب مـــا أنســـت ... فـــى مـــوحش البيـــداء بـــالقرد
تســـمو بجيـــد بـــالغ صـــعدًا ... شـــرف الصـــروح بغيـــر مـــا جهـــد
طالـــت رؤوس الشـــامخات بـــه ... ولربمـــا قصـــرت عـــن الوهـــد (٢)
قطعـــت إليـــك تنائفًـــا وصـــلت ... إســـادها بـــالنص والوخـــد
تخـــدي علـــى استصـــعابها ذلـــلا ... وتبيـــت طـــوع القـــن والقـــد
بســـعودك اللائـــي ضـــمن لنـــا ... طـــول الحيـــاة بعيشـــة رغـــد
جاءتـــك فـــي وفـــد الأحـــابش لا ... يرجـــون غيـــرك مكـــرم الوفـــد
وافـــوك أنضـــاء تقلـــبهم ... أيـــدي الســـرى بـــالغور والنجـــد
كـــالطيف يســـتقري مضـــاجعه ... أو كالحســـام يســـل مـــن غمـــد(٣)

---

١ – الوَشِيعة ، وَجَمعهَا وشائع وَهِي خَشَبَة يُلْوى عَلَيْهَا الْغَزل من ألوان شتّى من الوَشْي وَغير ألوان الوشي. وكلُّ لَفِيفة مِنْهَا وشيعة ، وَمن هُنَاكَ سُمّيت قَصَبَة الحائك وشيعة؛ لِأَن فِيهَا يُوَشَّع الْغَزل. محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) تهذيب اللغة ، محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م جـ ٣ صـ ٤٣

٢ – وهد: الوَهْدُ: المكانُ المنخفض، كأنّه حُفْرة. تقول: أرضٌ وَهْدة، ومكانٌ وَهْدٌ ويكون الوَهْدُ اسماً للحُفرة. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) كتاب العين ، المحقق: د مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، الناشر: دار ومكتبة الهلال ، الباب الهاء والدال فصل الواو جـ ٤ صـ ٧٧

٣ – عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ) رحلة ابن خلدون ، عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطَّنجي ، الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى (١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م) صـ ٧٩

ويواصل ابن خلدون؛ وصفه لأوصاف الزرافة الخارجية، بعد أن ذكر نسبيها، وكيفية خلقها، وتكوينها بحكمة بالغة، وقدرة عظيمة، فنعم الخالق المصور في خلقه، وكونه .

فيصف ابن خلدون ذراع الزرافة، بالطول الفائق، والقوة الخارقة ، فقد يسمو إلي الصروح العالية المرتفعة ، ويعلو حتي يصل إلي الأشجار، والمرتفعات دون جهد، أو مشقة في ذلك، فالشامخات أصبحت بالنسبة للزرافة، أمرًا سهلاً يسيرًا ، وكذلك أصبحت المنخفضات والحفر؛ التي في جوف الأرض من الأمور اليسيرة السهلة عليها، بسبب جيدها الطويل .

وبرغم صعوبة الرحلة ، فأن الزرافة تسرع في خطاها، منقادة في نهارها، وتبيت طوع العبد، والقيد في ليلها، لتظفر بسعادة الممدوح؛ وتنال كرم ضيافته، ووفادته، وربما عاشت الزرافة في كنفه بقية عمرها، وحياتها .

فقد وصلت الزرافة مع وفد الأحباش؛ الذي مقصده كرم الممدوح، وغايته عطائه الفياض، وأمنيته خيره الوافر، فقد وصل الجميع، بعد أن أنهكتهم الصحراء، وبلاد الغور، والنجد؛ فهم في تتبع شديد لأخبار الممدوح؛ حتي أصبحوا في مكانهم المناسب منه ، كما يسل الحسام من الغمد .

وكما وصف ابن خلدون هيئة الزرافة، وأعطافها، وصف – أيضًا- الرحلة الشاقة؛ التي قطعتها الزرافة؛ حتي وصلت بين يدي الممدوح ، واستهل ابن خلدون رحلة زرافته الشاقة، بطويها البيداء والقفار في خطى سريعة في نهارها، وليلها.

وكأن الشاعر يتحدث عن الناقة المشرقية؛ التي استحوذت علي بناء القصيدة العربية المشرقية في العصر الجاهلي، وما بعده من عصور أدبية، سارت علي النهج نفسه في وصف الرحلة، والناقة .

ويلاحظ من نظم ابن خلدون في أبياته - آنفة الذكر - مدي تأثره الشديد بالطابع المشرقي في بناء قصيدته؛ التي يدور فلك رحاها، حول مدح الممدوح من خلال إبراز صفاته الكريمة، وسجاياه الحميدة ، ثم يعرج الشاعر إلي تصوير المخاطر والمتاعب؛ التي تواجه المادحين في رحلتهم إلي الممدوح .

فيبدأ الشاعر بذكر البيداء، وأهوالها، والمسافات الكبيرة؛ التي يقطعها الركب من أجل الوصول إلي بلاط الممدوح، فقد تكبدت الزرافة علي الرغم من جمالها، ورقتها كثير من المتاعب الشديدة، والمشاق القاسية؛ التي تكبدها ركب الأحباش في سعيهم للوصول للممدوح ، ولكنها في النهاية، حظيت بنوال الممدوح، وكرمه الفياض .

ويبدو أن جمال الزرافة، ومنظرها الخلاب، جعلها تستحوذ علي مقدمة الهدايا؛ التي جلبت من المشرق العربي؛ لبعض ملوك الأندلس، وأمرائها، لذا أنشد الشاعر الأندلسي ابن زمرك (٧٣٣ه - ٧٩٥هـ) في هذا الصدد قصيدة وصف فيها الزرافة، ووصف فيها الرحلة الشاقة؛ التي قطعتها في البيداء من أجل الوصول إلي الممدوح، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر الأندلسي ابن زمرك قائلاً: الكامل

وغريبة قطعت إِلَيْك على الونى ... بيدا تبيد بهَا هموم السارِي
تنسيه طيته الَّتِي قد أمهَا ... والركب فِيهَا ميت الْأَخْبَار
يقتادها من كل مُشْتَمل الدجى ... فَكَأَنَّمَا عَيناهُ جذوة نَار
تشدو بِحَمْد المستعين حداتها ... يتعللون بِهِ على الأكوار
إِن مسهم لفح الهجير أبلهم ... مِنْهُ نسيم ثنائك المعطار
خَاضُوا بهَا لجج الفلا فتخلصت ... مِنْهَا خلوص الْبَدْر بعد سرار
سلمت بسعدك من غوائل مثلهَا ... وَكفى بسعدك حاميا لذمار
وأتتك يَا ملك الزَّمَان غَرِيبَة ... قيد النواظر نزهة الْأَبْصَار
موشية الأعطاف رائقة الحلى ... رقمت بدائعها يَد الأقدار
راق الْعُيُون أديمها فَكَأَنَّهُ ... روض تفتح عَن شَقِيق بهار
مَا بَين مبيض وأصفر فَاقِع ... سَالَ اللجين بِهِ خلال نضار
يَحْكِي حدائق نرجس فِي شَاهِق ... تنساب فِيهِ أراقم الْأَنْهَار
تحدو قَوَائِم كالجذوع وفوقها ... جبل أَشَمّ بنوره متواري
وسمت بجيد مثل جذع مائل ... سهل التعطف لين خوار
تستشرف الجدرات مِنْهُ ترائبا ... فَكَأَنَّمَا هُوَ قَائِم بمنار
تاهت بكلكلها وأتلع جيدها ... وَمَشى بهَا الْإِعْجَاب مشي وقار
خَرجُوا لَهَا الجم الْغَفِير وَكلهمْ ... متعجب من لطف صنع الْبَارِي

كل يَقُول لصحبه قومُوا انْظُرُوا ... كَيفَ الْجبَال تقاد بالأسيار
أَلْقَت ببابك رَحلهَا ولطالما ... أَلْقى الْغَرِيب بِهِ عَصا التسيار
علمت مُلُوك الأَرْض أَنَّك فخرها ... فتسابقت لرضاك فِي مضمار
يتبوؤون بِهِ وَإِن بعد المدى ... من جاهك الْأَعْلَى أعز جوَار
فارفع لِوَاء الْفَخر غير مدافع ... واسحب ذيول الْعَسْكَر الجرار
واهنأ بأعياد الْفتُوح مخولا ... مَا شِئْت من نصر وَمن أنصار
وإليكها من روض فكري نفحة ... شف الثَّنَاء بهَا على الأزهار
فِي فصل منطقها ورائق رسمها ... مستمتع الأسماع والأبصار
وتميل من أصغى لَهَا فكأنني ... عاطيته مِنْهَا كؤوس عقار(١)

اعتمد ابن زمرك في أبياته، أسلوب التفصيل؛ الذي رسم به لوحة فنية رائعة ؛ كانت أوصاف الزرافة، وصفاتها محورها البارز، وركنها الرئيسي، أما خطوطها العريضة؛ فتمثلت في رصده الدقيق؛ لأعضاء الزرافة البارزة، تارة ، وتناسق جسمها الفريدة ، تارة أخري، وكذلك رصده حركاتها البديعة، ونظراتها القوية، تارة ثالثة، أما حديث ابن زمرك عن ألوانها البديعة، وتناسقها تناسقًا عجيبًا، فقد استهوى أنظار الجمع الغفير؛ الذي نظر إليها في دهشة بالغة، وعجب شديد لجمالها، ولقدرة الخالق في تكوينها، وخلقها علي هذه الهيئة الفريدة.

وربما يرجع انبهار معظم الأندلسيين، بهذا الحيوان المسمي بالزرافة، لكونها دخيلة علي البيئة الأندلسية؛ لم تولد في هذه البيئة، أو ربما لم يسع أحد المرابيين الأندلسيين لتربيتها، فلم يسع المهتمون بالحيوانات في بلاد الأندلس إلي اقتنائها في البيئة الأندلسية .

وقد يرجع تواجد الزرافة في بلاد الأندلس؛ لكونها أحدي الهدايا في بعض المناسبات؛ كهدية من الوفود القادمة من بلاد المشرق .

ومن ثم فقد حظيت الزرافة، باهتمام بعض الأندلسيين؛ لما لها من جمال فائق في تكوين جسمها، وفي منظرها الفريد، فقد وصفت بلاد الأندلس، أو الطبيعة

١ – المقري التلمساني ، نفح الطيب جـ ٧ صـ ١٥٣

الأندلسية بالرقة، والجمال، والذوق الرقيق؛ لدي كثير من ملوكها، وأمرائها، وعالية القوم .

لذا فقد أولى بعض الملوك، والأمراء هذا الحيوان العجيب كثيرًا من الاهتمام، والعناية؛ مما جعل بعض الشعراء الأندلسيين؛ الذين رهف حسهم، وسما ذوقهم؛ يولعون بذكره في أشعارهم؛ فطفقوا، يفصلون الحديث في وصفه، ويبرزون أهم صفاته، وأوصافه، ويرصدون حياته، ونشأته رصدًا دقيقًا معبرًا عن حياته أصدق تعبير .

ويجد المتأمل في الأشعار؛ التي تناولت وصف الزرافة في الشعر الأندلسي؛ أن هناك مجموعة من الصفات المشتركة، والأوصاف المتقاربة؛ التي اجتمعت حولها أنظار الشعراء، يلاحظ اهتمام الشعراء بهذا الحيوان اهتمامًا ملحوظًا؛ تمثل في التفصيل الشديد لأوصافه، والرصد الدقيق لحياته، وبيئته؛ التي يعيش فيها - وأيضًا - رصدهم البيئة الجديدة ؛ التي ينتقل إليها مثل : رصدهم لحياته في بلاد الأندلس.

وقد أصبحت الزرافة من أجمل الهدايا، وأكثرها قيمة، وأعظمها قدرًا، لدى ملوك الأندلس، وأمرائها؛ فدفعهم ذلك للعناية بها عناية فائقة، وقد دفع هذا الشعراء؛ لتعني بها في أشعارهم، وحث القائمين علي تربيتها، بحسن معاملتها، وتوفير كل سبل الراحة لها .

ويلاحظ من النصوص الشعرية؛ التي تناولت الزرافة، أنه يغلب عليها طابع القصائد الطويلة،أو أنها مجموعة من الأبيات الطويلة ضمن قصائد طويلة يدور فحواها حول المديح تارة، والفخر تارة أخرى، وسوف يفصل الباحث القول في هذا في باب الدراسة الفنية؛ لشعر وصف الحيوان في الأندلس .

ويلاحظ من خلال رصد أشعار الشعراء الأندلسيين، والقصائد التي تناولوا فيها وصف الزرافة، إن أول ظهور لوصف هذا الحيوان شهده القرن الثالث الهجري من خلال نص ابن فرج الجياني - وإن كان هذا في بيت مفرد- ولكنه يعد بمثابة شرارة البداية؛ التي توالت بعدها الأوصاف، والنصوص التي تناولت هذا الحيوان، ويتعلق ذلك بعدة نقاط:أولها: إن البيئة الأندلسية لم تشهد ميلاد هذا الحيوان العجيب، ولم تشهد – أيضًا- نشأته فيها صغيرًا، أبان القرن الأول، والثاني، والثالث الهجري، فقد خلت بلاد الأندلس في قرونها الثلاثة الأولي من

تواجد هذا الحيوان فيها، وقد انعكس ذلك بدوره، علي شعراء الأندلس، وأدبائها في هذه الفترة التاريخية، فلم يذكر شعراء هذه الفترة التاريخية هذا الحيوان الجميل؛ لأنهم لم يشاهدوه، أمام أعينهم، ولم عايشوه حياته، ونشأته.

ثانيها : إن هذا الحيوان دخيل علي بلاد الأندلس في فترة سياسية متقلبة الأحداث، غير مستقرة سياسيًا، أو عسكريًا، فقد شهد القرن الرابع الهجري، والخامس الهجري حياة سياسية شديدة الصعوبة، فقد خيمت الحروب، والفتن، والتآمر مع الآخرين، ضد ملوك الأندلس، بل وتآمر بعضهم البعض علي مجريات الأمر في البلاد؛ وقد انعكس ذلك علي شعراء هذه الفترات الزمنية.

فطفق معظم شعراء هذه الفترة ؛ يسجلون من خلال نظمهم، وأشعارهم أمجاد، وانتصارات ملوكهم، وحكامهم؛ ويصفون كل مجريات الحياة ؛ فقد يصف الشاعر في هذه الفترة بعض الهدايا؛ التي تقدم لهؤلاء الملوك، والحكام، وقد استحوذت الزرافة علي كثير من هذه المناسبات .

ثالثها: ولع بعض ملوك الأندلس، وأمرائها، وحكامها؛ لإنشاء كثير من القصور الفارهة، والمدن فائقة الجمال؛ وحرصهم علي تزين حدائقها، ومتنزهاتها بكل ما هو جميل من النباتات، والحيوانات؛ وإن لم تكن هذه الحيوانات، وليدة البيئة الأندلسية مثل: الزرافة رمز الجمال، والرقة، والأناقة الفائقة .

رابعها : رغبة بعض الشعراء الأندلسيين؛ الذين وصف الزرافة في محاكاة الشعراء المشارقة في وصفهم لهذا الحيوان الجميل، ونهجهم النهج نفسه لدى المشارقة، في إظهار جمال هذا الحيوان، وإظهار أوصافه بعد رحلته الشاقة إلي بلاط الملوك، والأمراء، وإبراز المشقة، والصعوبات؛ التي يكابدها هذا الحيوان في البيداء المخيفة؛ التي ليس بها طعام ، ولا ماء ليصل إلي بلاد الممدوح .

في نهاية الحديث عن هذا الحيوان العجيب، والفريد في كل صفاته، وأوصافه، أرى أن زرافة كانت رمزًا للجمال عند المشارقة، وأصبحت – أيضًا- رمزًا للجمال، والرقة، والأناقة لدى الأندلسيين، وستبقي كذلك عند جميع الشعراء والأدباء، وأهل الأدب، والثقافة علي مر العصور، والدهور التاريخية .

المصادر والمراجع :-

١- ابن حمديس الصقلى، أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر محمد ت [٥٢٧ه] ديوان شعره صححه وقد م له : إحسان عباس. دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٠ م.

٢- الدميري ، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى ، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: أحمد حسن بسج ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣- ابن رشيق القيروانى، أبو الحسن على (ت ٤٥٦ هـ) ديوان شعر ، تحقيق : عبد الرحمن ياغي ، دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، سنة ١٩٨٩م .

٤- صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ) الوافي بالوفيات،تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر(١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م) جـ ٢١ صـ ٣٠

5- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) كتاب العين ، المحقق: د مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، الناشر: دار ومكتبة الهلال .

6- عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الأشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ) رحلة ابن خلدون ، عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطَّنجي ، الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م)

7- محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) تهذيب اللغة، محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .

٨- المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد (المتوفى: ١٠٤١هـ) كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، المحقق: إحسان عباس ، الناشر: دار صادر- بيروت - لبنان ، الطبعة ١٩٩٧م.

- المراجع :-

١- حازم عبد الله خضر: وصف الحيوان فى الشعر الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٧م .